

رويدا رويدا... انا اليوم غير

1/11/ ما زلتُ أتذكره كأنه أمامي, اجهل مصيري أين اذهب ؟ أو حتى من اين اتيت الا أنني تقدمت بخطوات متثاقلة يكسوها الشوق وفي نفس الوقت الخوف والقلق ,فانا اليوم أضع مصيري تحت ناظريّ فهذا هو هدي الذي ضحيّت من أجله فكم واجهتني التّحديات والعراقيل حتى وصلت اليه.

ما زلتُ اذكر حين استعديت استعدادًا للقاء ,الأقلام في الحقيبة والدوسية فاليدي ,لبستُ الجميل ومشطت الجنايبيّ وكأني الفتى النبيل بعينه ,استنشقت عليل الصباح ,تنفست الصعداء وتوجهت نحو تحقيق اهدائي.

حين رأيت المدرسة للمرة الاولى ,دخلتها وانا شبه الغريب ,بل الغريب بعينه لا اخ ولا حتى رفيق يُؤنسُ بوحشتي استشعرت حينها كأني انتقلت الى عالم مرئي من الظاهر مخفي من الداخل ,تقدمت وأنا انظر نحوي وأسمع أصوات الطلبة والمدرسين تعلقو فتعلقو فزادني رجفة أكثر المباني شكلها غريب , الصفوف كأنها ضُيقت , الممرات وكأنها طويلة لا تنتهي , شبه لي أنّ كل شيء مخيف ,حتى الطلبة خفت منهم ,نظراتهم البريئة الغريبة ,الكل ينظر اليّ ويأشر علي , لوقتها علمت أنني قد تسرعت في الاختيار, انتابني شعور بالغثيان والهلم والضيق اللا إرادي لماذا؟ أيعقل هذا؟ اهذه مهنتي ؟

بدأت تساؤلات تثار في مخيلتي ,تساؤلات لا إرادية , كيف سأقبلهم ؟ كيف سأتعامل مع الطلبة؟ اين المنهاج ؟ اين المرشد ؟ لا أحد يجب أدخل حصتي وأنا معلق الفم كالأبكم لا أتكلم الا شارحًا موضوعًا وأنا متمركز خلف الطاولة , ترنّج شفتاي أنظر للطلبة وأحاول اعطاء ما لدي ,وفجأة أرى أنّ شعور الضيق تجسد لي على شكل طالب يستفزني يطلب الحمام ,وتارة يضحك .

أفتح باب الصف كالمغمى عليه , وكأني محبوس في زنزانة , علاقتي ليست جيدة معهم , لا أحس أنهم تقبلوني , كثير و الانتقاد , كثير المشاكل معهم ,أجهل الان هدي بل وجهتي , كيف أحتويهم؟ أتعامل معهم بأسلوب التلقين والكتابة ,ولا الجأ الى الطرق الحديثة خوف انتهاء الوقت.

لم تكمن اشكالياتي مع الطلبة بحد ذاتهم ,بل مع الطاقم الذي سأمضي أغلب يومي معهم ,طاقم الإدارة لست أدري كيف أتعامل وأندمج معهم , فهم يروني صغير السن لا أتماشى مع رغباتهم وميولهم الشخصية.

أنظرُ للمدير وللإدارة فأرى كابوس أحلامي يتلاشى .أرجع للبيت خائر القوى وكأني كنت أعمل في ورشة عمل , يلاحقني تعب جسماني يكسوه نفساني , الكل يقول عليك ان تصرخ وترفع من صوتك حتى يخافوا منك ,وأنا أسمع

بنصحههم كونهم ذوي خبرة وانا مبتدأ ,والنتيجة أرى انه لا جدوى من ذلك فكلما فرضت شخصيتي عليهم وصرخت زادهم عنادًا وحقًا.

تكمن قصتي حين لا اريدُ تذكر موقف أب أحد الطلبة معي , حين اتهمني زورًا وذلك حين أكثر ابنه من الكلام اللا أخلاقي والمرفوض عرفًا ودينًا وقانونًا , يتمرد ويخرج بدون اذن بحجة أنه لا يريد حضور الحصة, يعلق الباب بقوة ويجلس في الخارج يثير الشغب .

توجهت للإدارة من فوري وعيناى يعلوها الاسى والأسف على ما مر علي , فأخبرتكم بذلك ارتفعت الأصوات تطايرت الأوراق عزمت على الرحيل وعدم العودة البتة فكرامتي فوق كل شيء.

نظرت للمدرسة نظرة المودع, واذا بما هي تذرّف دموع الأم الخاسرة لابنها, رأيتها كالوردة الذابلة , رأيت بعينيتها الحزن ومن ثم رجعت من حيث اتيت, اعذرني غالبتي فقد اصابني نوع من التآكل النفسي والإحباط لعدم معرفتي كيف اتعامل مع ذلك الصنف , شهقت زفرت غادت انهزمت مطأطأ الرأس .

يرن هاتفي ليلاً فيفاجئني شخص صوته يوضح أنه كبير السن , نبرته مخيفة ,وعلى الفور يقول: أنا أبو فلان ابني لم يفعل شيء كيف تفتري عليه؟ وبدأ بالصراخ والتلفظ بكلمات جارحة ,دمرتني حطمتني ياستني حينها عُقدَ لساني لم أعرف كيف ارد ,ماذا اقول ؟لم يسبق لي أن تعاملت مع هذه المواقف وداخلي جمر من لهيب حر الصيف, أيعقل أن يكلمني ؟أين الإدارة؟ اذّاركتُ الأمر وفي الحال اخذت أذكر محاسن وفضائل ابنه من باب تهدئته .

أخبرته بأن ابنه لديه الإمكانيات والقدرات حتى ينجح ,لكن كان ينفقسه بعض الأسلوب والرقي , أوضحت له الصورة الصحيحة بحذافيرها ,حتى اتضح له الحقيقة تحدثنا قرابة النصف ساعة .

انقلب الوالد رأسًا على عقب, اعتذر كثيرًا ومرارًا ذلك البركان الثائر أصبح فاترًا اغمضتُ عينين وتمنيتُ أن لا أتذكر في هدأت الليل وعلى ضوء القمر ,وفي لحظة صمت فيها ناجيت الله سبحانه وتعالى طالبًا منه أن يلهمني ما أفعل أن يوفقني في مسيرتي المهنية ولا سيما علاقتي مع الطلبة .

حينها تذكرت حين خاطب الله عز وجل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى: (وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَ لَقُلِبَ لَ اَنفَعُصُوا مِنْ حَوْلِكَ).

فمن هنا تذكرتُ أنّ عليك أيها المرابي أنّ تعرف كيف تتعامل مع الطلبة وأنّه يمرّ عليهم أحوال يشيب لها شعر الرأس , فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو نبي للعالم أجمع خاطبهُ الله بأنك يا محمد لو كنت فظًا غليظ القلب في تعاملك مع الناس لتركوك ولم ينتسبوا للدين, من وقتها وأنا احاول جاهدًا أن أجد طريقة فيها أكسب محبة الطلبة, حتى صدف

في ذلك اليوم الصيفي مقولة هزت كياني وحركتني من الداخل, مقولة لفتت انتباهي بشدة, تركت أثرًا طيبًا الى يومي هذا .

"إذا ما عرفت كيف تحتوي وتدخل لقلب الطالب لا منك ولا من تعلميك"

وقتها رنت في أذني وقلت في نفسي: روبيدًا روبيدًا تريث, بل تمهل فهم بحاجتك, وأنت جئت لتؤدي رسالة وتوصل أمانة.

كانَ لمخارج هذه الجملة صدًى كبيرًا أحسست به لأول مره ,وكأنها كانت موجودة داخلي وبحاجة الى أن تتحلل وجاء وقتها ,حينها تأكدت أن لكل بداية نهاية, فقلت في نفسي: لم أجنبي من مجافاتي للطلاب سوى عدم الفهم والكراهة والحقد, فقررت أن اغيّر ما كنت عليه, أن افترق فقرة نوعية ظاهرة تضفي رونقًا آخرًا على شخصيتي.

انتظرت انقضاء اليوم بفرغ الصبر ليأتي الصباح, في اليوم التالي قدمت الى الصف وناديت على ذلك الطالب ,وطلبت منه أن يحضر لي دفتره كي أرى خطه ,وأجعله يساعدني في الكتابة على اللوح بحجة أن خطي غير واضح ,في البداية تعجب ثم أخبرته أن ينسى الأمر, سأرى غيرك بدافع عدم اشغالك فانفض مهرولاً لا يا أستاذ بل أنا ,ففرحت لذلك وعلمت أن معادلتني بدأت تأخذ مجراها بحبه الطالب وانهاء الاشكال الذي كان بيننا, فمن ذلك الوقت حين أدخل الصف يأتي الطالب ويقف أمام اللوح كي يكتب ما أمليه عليه ,وضعه تحسن بكثير عما كان عليه ,علاقتي به اشتدت تمر الأيام وأنا أحاول البقاء مبتسمًا بشوشًا في وجه طلابي ,ولا سيما ذلك الطالب طارحًا تحية السلام عليهم, سألهم عن مشاكلهم وأحوالهم وأي استفسار ,لا أثقل عليهم في المهام ,أحاول أن أحتويهم قدر استطاعتي ,كنت لهم الأب والأخ ,فمن بعد الكيلو مترات أرى بسمتهم وهم يهرولوا نحوي للاستفسار .

الطلاب بحد ذاتهم تعجبوا مني, وأخبروني ليتك كنتَ معنا منذ البداية هكذا , انت من نبحت عنه ,لم ابقَ على ما كنت عليه , " انا اليوم غير " لا أنسى ولن أنسى كم ذكروني بالخير جميعًا ليس طالبًا ولا شعبة بل طبقة بأكملها زادني فخرا اني اليوم هنا .

فلا أنسى كم ضحيث لأجلهم حتى نصل لتلك النتيجة ,من كان يصدق أن المعلم المكروه قد أصبح محبوبًا؟ اكتسبت الكثير من محبة الطلاب الذين لم أدرسهم ,كنتُ أدخل حصص الفراغ لدي واتركُ بصمةً طيبة وأخرج ,حاولت غرس المحبة بيني وبين طاقم الإدارة, وبفضل الله نجحت في ذلك, من خلال علاقتي معهم والسؤال عنهم والجلوس معهم والتحدث بالأسلوب الحسن والتحلي بمكارم الأخلاق, حتى أصبحت علاقتي بهم أفضل بكثير عما كانت .

لم أصدق أنني قد أكون أحد طاقم المدرسة الفعال, لأني كنت قد استصغرت من قدراتي كوني مبتدئًا

تلك الصعوبات التي كانت في البداية كلها أزيحت بلمح البصر, فعندما اذكرها كأني اذكر يومًا او بعض يوم

ذلك التاريخ المشؤوم أصبح اليوم أروع ما أملك من تواريخ فيه بدأت مشواري المهني الذي صقل شخصيتي وعرفني على أحبة لم أكن لأتعرّف عليهم ,ومن جهة تلك البصمة الجميلة التي وضعتها آملاً من الله عز وجل أنّ أكون قد أدّيتُ مهمتي على أتم وجهه , فاليوم أخاطب نفسي وأقولها بصوت مرتفع رويداً رويداً .